المحاضرة الثانية

ظهور فكرة التنظيم الدولي والمنظمات الدولية

وقفنا في محاضرتنا السابقة على حقيقة أن التنظيم الدولي أضحى واقعا دوليا لا يمكن إنكاره بغض النظر عن منطلقاته ودوافعه وأهدافه ومدى قوته. يجدر بنا في هذه المحاضرة التعرّض إلى تاريخ ظهوره، وإلى الأصول الأولى لظهور المنظمات الدولية.

I. تاريخ التنظيم الدولي:

يشير المؤلفون إلى بعض مظاهر التنظيم الدولي في العصور القديمة، ومنها العلاقات الدولية التي كانت تسود بين مختلف الحضارات في مراحل السلم، واتفاقيات التحالف والهدنة، وبعض القواعد العرفية المتعلقة بالرسل، وأخلاق الحرب؛ لكن الوضع السائد في تلك الفترة كان هو وضع الحرب ومنطق القوة، بحيث تمتلك الدولة كل ما تطاله يدها، وكل ما طالته يدها فهو حقّها، والحقيقة أنّ هذا الوضع لا يمثّل تنظيما دوليا، لكن التنظيم الدولي ظهر مع مجيء الإسلام أولا، ثم مع بداية الثورة الصناعية في أوربا ثانيا.

1. التنظيم الدولي في الإسلام:

وضعت شريعة الإسلام أصولا للتنظيم الدولي تقوم على أساس التضامن الإنساني العام، والذي يشمل إلى جانب المسلمين كافة أعضاء المجتمع الإنساني باعتبارهم بشرا، قال الله عز وجل:" يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عن الله أتقاكم، إن الله عليم خبير".

كما تقوم على تفضيل الوسائل السلمية لفض النزاعات فالهدف الأول لدولة الإسلام هو توصيل دعوة التوحيد إلى البشر، وليس الاستيلاء على الأقاليم والخيرات، والمسلمون دعاة لا جباة، قال الله عز وجل:" وإن جنحوا للسلم فاجنح لها..."؛ غير أن الجنوح إلى السلم يجب أن لا يكون من موقف ضعف ولا مذلة بل من موقع قوة ولهذا قال الله عز وجل:" **فلا تهنوا** و **تدعوا** إلى السلم و**أنتم الاعلون** والله معكم ولن يتركم أعمالكم"، ومن أجل ضمان ذلك يجب على الدولة الإسلامية أن تكون مستعدة لمقارعة العدو في كل وقت، بإعداد ما يتطلبه ذلك من قوة تجعل الطغاة يجنحون إلى السلم والتنحي عن طريق الدعوة صاغرين، قال الله عز وجل:" وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم...".

كما يقوم التنظيم الدولي في الشريعة الإسلامية أيضا على مبدأ المعاملة بالمثل دون الاعتداء والظلم، قال الله عز وجل:" وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به..."

كما يقوم على التزام جانب العدل والرحمة حتى مع العدو، قال الله عز وجل: "ولا يجرمنكم شنئآن قوم على ألاّ تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى".

ويقوم أيضا على مراعاة العادات المرعية التي لا تخالف عقيدة الإسلام، كاحترام حقوق الرسل والوفود، واحترام الكرامة الإنسانية وحقوق الضعفاء من شيوخ وأطفال وأسرى... ورسائل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده حافلة بمثل هذه الوصايا.

إنّ هذه الأصول التي جاء بها الإسلام في مجال التعامل الدولي مثّلت انقلابا حقيقيا في طبيعة العلاقات الدولية التي كانت مبنية على الاستيلاء المادي على

أقاليم الشعوب الأخرى لأغراض غير شريفة، فجاء الإسلام الذي بنى العلاقات الدولية على أساس السلم الذي تحترم فيه الملكيات والحقوق وتتاح في حرية العقيدة بما فيها احترام حق المسلمين في أن يدعوا من شاءوا إلى دينهم وحق هؤلاء أن يدخلوا فيه دون إكراه، فإذا ما اعترضت دعوة التوحيد ووقف الطغاة والأباطرة في وجه تبليغها إلى الناس، كان حقا على الدولة الإسلامية أن تحاربهم حربا مشروعة حمايةً لدعوة التوحيد إذا ما رفضت الدول الأخرى الحلول السلمية، قال الله عز وجل:" فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم...".

2.ظهور التنظيم الدولي في أوربا:

أدّى احتكاك أوربا بالأندلس إلى نهضة علمية وثقافية تسببت في انهيار وتصدّع النظام الاقطاعي وضعف نفوذ الكنيسة وبدء ظهور الدولة المركزية، هذه الأخيرة أوجدت ما يسمى بالنزعة القومية تسببت في إشعال فتيل الكثير من الحروب بين دول أوربا، ولقد اشتهرت حرب المائة وستة عشر عاما بين فرنسا وانكلترا والتي امتدت من سنة 1337 إلى 1453م، وحرب الثلاثين عاما التي استمرت من سنة 1618 إلى سنة 1648 والتي حدثت وقائعها بشكل عام على أراضي ألمانيا

ونظرا لما جلبته الحروب من ويلات على هذه الدول فقد اضطرّت إلى البحث عن حالة من توازن القوى تقف حائلا دون استقواء أي من الدول على الباقي وهو ما كان من خلال:

أ. **المؤتمرات الدولية:** حيث عقدت عدة مؤتمرات دولية أهمها مؤتمر وستفاليا (1648) الذي أنهى حرب الثلاثين عاما، والذي أعاد تنظيم أوربا، وفي القرن التاسع عشر عقدت عدة مؤتمرات أهمها مؤتمر فيينا (1815) الذي عقد لتسوية النزاعات بين فرنسا وبقية دول أوربا بسبب الحرب التي استمرت 25

عاما تقريبا وهو ما سمي بمؤتمر الوفاق الأوربي، والذي ضمن استقرار أوربا لمائة عام قادمة، ومؤتمر صلح باريس 1856.

الحروب النابليونية وضعت فكرة إيجاد المنظمات الدولية موضع التنفيذ عن طريق المؤتمرات الدولية، ففي أعقاب انهيار فرنسا ونفي نابليون خارج أوربا وجدت الدول الأوربية المنتصرة (روسيا – بروسيا والنمسا وانكلترا) بأن الوقت قد حان لعادة تقسيم أوربا على أساس متوازن لذلك انعقد مؤتمر ڤينا عام 1814 المؤتمر الأوربي الذي تمخض عن معاهدة ڤينا عام 1815 والذي أعقبته عدة معاهدات ومؤتمرات:

ب. التحالف الرباعي (إنكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا) 1815 للحفاظ على السلام الأوربي

ت. التحالف المقدس (روسيا وبروسيا والنمسا) 1815 للحفاظ على عروش ملوكها.

ث. مؤتمر باريس لضمان استقلال الصرب 1856

ج. مؤتمر برلين لتأكيد استقلال الصرب ومونتينيجرو وبلغاريا ورومانيا 1878

ح. مؤتمرات لاهاي 1899 و1907 التي انبثقت عنها قوانين الحرب والحياد.

رغم أهمية هذه المؤتمرات إلا أنها لم تكن كافية، حيث كانت وقتية وعلاجية وليست وقائية بحث تأتي بعد الأزمات والحروب وتأتي لعلاج نتائجها وليس للوقاية منها، وأخيرا فإنها لم تكن تنشئ أجهزة لمتابعة تنفيذ قراراتها وبالتالي غالبا ما تبقى قراراتها حبرا على ورق.

اللجوء إلى التحكيم الدولي: كطريقة سلمية لتسوية المنازعات بين الدول، وقد كان لنجاح التحكيم في قضية الألبما (1872) دورا مشجعا في اللجوء إليه فيما بعد بين الدول، كما أن مؤتمري لاهاي 1899 و 1907 أقرا مبدأ اللجوء للتحكيم ووضعا قواعدا وإجراءات له،و كان مؤتمر لاهاي 1899 قد وضع قائمة بأسماء القضاة الذين يمكن أن تلجأ إليهم الدول المتنازعة للتحكيم.

II. الأصول الأولى لنشأة المنظمات الدولية في أوربا:

انتعشت الصناعة والاقتصاد كثيرا في فترة السلم والصلح والتوازن التي سادت بعد مؤتمر فيينا، وهو ما أدى إلى ظهور نوع من التعاون الدولي من أجل تحقيق مزيد من الرفاهية وهكذا ظهرت:

1. الاتحادات الدولية الخاصّة:

نشأت في هذه الفترة العديد من الاتحادات الخاصة بسبب اتخاذ بعض مصالح الأفراد والهيئات الخاصة طابعا دوليا، بسبب الثورة الصناعية وانتعاش التجارة الدولية، واحتاج ذلك إلى قيام هيئات دولية لها علاقة وطيدة بالهيئات الرسمية داخل الدول. بدأ تكوّن هذه الاتحادات منذ سنة 1840 ووصل عددها سنة 1919 400 هيئة.

من أمثلة هذه الهيئات اتحاد الموازين والمقاييس 1875، الجمعية الدولية لحماية العمل، الصليب الأحمر الدولي، جماعة القانون الدولي...

2. الاتحادات الدولية العامة:

قامت العديد من الاتحادات الدولية العامة المرتبطة مباشرة بالدول، ولقد غطّت العديد من الميادين أهمها:

- **اللجان النهرية:** اللجنة النهرية لنهر الراين(اتفاقية فيينا 1815)، اللجنة النهرية لنهر الدنوب (1856)، اللجنة النهرية لنهر الألب (1821).
- **لجان السكك الحديدية:** حيث تأسس الاتحاد الدولي للسكك الحديدية عام 1890.

- **لجان الاتصالات اللاسلكية:** بسبب اختراع الهاتف والتلغراف نشأت مجموعة من المشاكل التي تحتاج إلى الفصل فيها، فأنشئ الاتحاد الدولي للتلغراف، والاتحاد الدولي للبريد.
- **لجان صحية:** المكتب الدولي للصحة عام 1903.
- **لجان اقتصادية:** المعهد الزراعي الدولي (1905)

III. مرحلة ظهور المنظمات الدولية العامة والمتخصصة.

تميّزت هذه المرحلة بنشأة أول منظمة سياسية دولية عامة وعالمية وهي عصبة الأمم، كما جاءت معاهدات الصلح بعد الحرب العالمية الأولى بمنظمات مهمة مثل منظمة العمل الدولية، ووضع عهد العصبة مبدأ إشراف العصبة على هذه المنظمات وعلى أية مكاتب دولية تنشأ مستقبلا.

ونظرا لبروز بعض الأفكار المتطرّفة في هذه الفترة مثل النازية والفاشية والشيوعية فإنه لم يكتب لهذه المنظمة النجاح في الحفاظ على السلم والأمن الدوليين، ونشبت الحرب العالمية الثانية.

بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ظهرت منظمة الأمم المتحدة التي قامت على أساس التحالف بين القوى الكبرى المنتصرة في هذه الحرب، وكان لها عدة أهداف لكن أهمها:

1. الحفاظ على السلم والأمن الدوليين.
2. تعزيز حقوق الإنسان المدنية والسياسية والاقتصادية والثقافية.
3. توفير الرفاهية وتطوير الاقتصاد العالمي.

لتحقيق هذه الأهداف نشأت العديد من المنظمات كصندوق النقد الدولي، البنك العالمي، منظمة التجارة العالمية، ومختلف منظمات حقوق الإنسان، خاصة الداعمة لحقوق الفئات الضعيفة (الأطفال، النساء، اللاجئين...) ومنظمة الغذاء والدواء، منظمة الصحة العالمية...

ونتيجة حصول العديد من الدول على استقلالها اعمالا لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ظهرت العديد من المنظمات الإقليمية كجامعة الدول العربية، الاتحاد الإفريقي، الاتحاد الأوربي...

لقد ساهم التطور العلمي والتكنولوجي في زيادة عدد المنظمات بشكل كبير جدا إلى درجة أن أصبح هذا العصر يسمى بعصر المنظمات.